فصل من رواية

عطش الحب

تأليف يوكيوميشيما
ترجمة محمد عيتاني

هذه الرواية تروي قصّة شريحة من المجتمع الريفي (الأبوي) ، الياباني ، حيث نتابع ، بلهفة وتشوّق ، أحداث الحياة اليومية لعائلة لها ربّها وأعضاؤها وأبطالها : ياكيشي ، الوالد المتمتع بحقوق السلطة ، وايتسوكو ، المرأة الشابّة الحسناء المحبوبة بصورة سيئة والتي تتلهّف إلى لحظة حبّ أو علاقة حبّ ، وزوجها الذي يفضّل عليها عشيقاته ، قبل أن يموت ، وحبيبها ، من جانب واحد ، الخادم الوسيم سابورو ، وعشيقته الخادمة الحسناء ميو . وأهمّ ما في هذه الرواية خطّان صاعدان : خط يذكّرنا بالمأساة « اليونانية » الملحمية والدرامية ، فالدراما في هذه الرواية تهدّدنا ، في كل لحظة من تطوّرها ، بالنهاية الفاجعة لحبّ الصبيّة الحسناء ايتسوكو ، علماً بأننا نتوقع نهايتها ولكن بدون تحديد ولا يقين ، وخط آخر تنفتح فيه مصائر أبطال الرواية بهدوء وثقة ، دون أي تدخل ذاتي من قبل الروائي الياباني الكبير ميشيما . فكأنما الرواية ، زهرة سحرية تتفتح عارضة مصائر أبطالها ، كأنما عَبْرَ عدسةٍ سحرية .

وهذه الرواية هي آخر ما ترجم محمد عيتاني قبل أن تخترمه يد الموت . وننشر هنا فصلاً منها .

« الآداب »

لزمت ايتسوكو الصمْت . وتناول سابورو قطعة من القشّ ، ولفها حول إصبعه ، محدثاً بها صريراً .

ثم أفلتت الكلمات من فم ايتسوكو .

ـ أنا التي صرفت ميو .

ـ أنا أعرف ذلك ، هكذا قال سابورو ، رافعاً نظره بهدوء تأم .

ـ من الذي قال لك ذلك ؟

ـ السيدة أزاكو .

ـ أزاكو .

خفض سابورو رأسه . ولفّ قشّة أخرى حول إصبعه . كان يجد من المربك رؤية انذهال ايتسوكو . وفي خيال ايتسوكو الملتهب ، كان الموقف الراضخ لدى هذا الفتى الخافض العينين هو نتيجة جهده في هذه الأيام الأخيرة لاتخاذ هيئة سعادة بالرغم من واقع أن حبيبته وهو قد فصلا بدون سبب . وهو الآن ، بعد أن تحمل زمناً طويلاً هذا العذاب ، ما زال يظهر هذا الخضوع ، وهذا الاعتدال الذي لا يضاهي ، واللذين تختفي وراءهما مقاومة لا يمكن التعبير عنها ولا قهرها ، مقاومة كانت تجرح ايتسوكو أكثر من أعنف اللعنات . وتشنّج جسمها على الكرسي الصغير .

كانت تشبك يديها وتفكّهما وهي تتكلّم بصوت منخفض ، بلهجة متوسّلة ومحمومة . وكانت أقوالها تنقطع أحياناً بما يمكن تماماً أن يكون بكاء ، يشهد بقوة الانفعالات التي كانت تكبحها . وأحياناً كان يبدو أنها غاضبة .

ـ اعذرني ، أرجوك . لقد كنت أتألم ألماً هائلاً . ولم يكن بإمكاني أن أفعل شيئاً آخر . وإضافة إلى ذلك ، فقد كذبت عليّ . لقد قلت لي إنك لا تحبّها ، وطوال هذا الوقت ،

كنتما ، هي وأنت عاشقين شديدي العشق ! ولكم عذّبتني هذه الكذبة ! كنت أريد أن أعلمك بالعذاب الذي كنت تسبّبه لي دون أن تعلم ، وكان لديّ الانطباع بأن عليّ أن أجعلك تعاني القلق نفسه الذي لا يطاق . إنك لا تستطيع أن تتصور كم عانيت أنا ! وكنت أتمنى لو استطيع أن أزيل هذا العذاب من قلبي لأضعه إلى جانب العذاب الذي تحسّ به أنت الآن . وسنعرف الآن أيهما كان الأسوأ . بل وإنني فقدت كل سيطرة على ذاتي ، وأحرقت يدي عن عمد بالنار . انظر ! لقد فعلت هذا من أجلك . لأجلك أحرقت يدي .

مدّت يدها في ضوء القمر ، عارضة موضع الحرق . ومدّ سابورو يده ، ولامس طرف أصابع ايتسوكو وكأنه يلمس شيئاً فظيعاً ثم أسقط يده بشدة .

قال سابورو في نفسه : « في تيرني ، رأيت مثل هؤلاء المتسوّلين : إنهم يرونك جراحهم لاستدرار شفقتك ، إنها جروح فظيعة . والسيدة هي أشبه بمتسولة نبيلة » .

لم تمض أفكار سابورو إلى أبعد من ذلك . ولم يكن يعلم أن ألم ايتسوكو هو الذي يجعلها مباهية ومعتزّة .

لم يكن يعلم بعد أن ايتسوكو كانت تحبه .

كان يجهد ليدرك ، في اعتراف ايتسوكو المفكك ، هذا الأساس من الحقيقة التي لم يكن يستطيع فهمها . هذه المرأة تتألم ، هذا مؤكّد . وكانت تتألم ، ورغم أنه لم يستطع أن ينفذ إلى السر ، فقد كان يعرف أن سبب هذا الألم له صلة به . وحين يتألّم شخص ما ، فيجب القيام بشيء ما ، لتهدئته . ليته فقط كان يعرف كيف . . .

قال : ـ لا تقلقي من أجلي ، يا سيدتي . فبدون ميو ، سيكون الأمر محزناً خلال وقت ما ، لكن هذا لا أهمية كبيرة له .

لم تكن ايتسوكو تصدّق بأنه يقول هنا كل الحقيقة . وكانت منذهلة بالشهامة الهائلة التي يظهرها . كانت نظرتها غير المصدقة تسعى لأن تكتشف ، في إهتمام سابورو الطيب ، وتعاطفه البسيط ، كذبة متواضعة ولائقة .

ـ إنك لا تقول لي الحقيقة بعد . إن التي تحبّها قد أبعدت بالقوة ، وأنت تقول إن هذا لا أهمية كبيرة له . فكيف يمكن هذا ؟ أنا أقول لك كلّ هذا معتذرة منك ، وأنت ترفض أن تكشف نفسك وتقول لي شعورك الحقيقي . أفلا تريد أن تسامحين ؟

في روح سابورو البسيطة والشفّافة ، لم يكن هناك خصم أكثر تجرّداً من السلاح ضد فكرة ايتسوكو الثابتة ، السديمية والرومانسية . لم يكن يعرف من أين يبدأ . بيد أنه كان يبدو له أن القاعدة الأساسية لقلقها هو كذبته ، هذه الكذبة الكبيرة التي آخذته عليها بالضبط منذ قليل : « أنا لا أحب ميو » . إذا كان يستطيع إقناعها بأن هذا الزعم هو صحيح ، فإنها بالتأكيد ستجد نفسها في حالة أفضل .

وقال بصورة واضحة جداً :

ـ ليست هذه كذبة . وليس عليك حقاً أن تتعذبّي بسببي ، يا سيدتي ، لأنني لا أحبّ ميو .

كانت ايتسوكو تضحك تقريباً ، وعلى كل حال ، فهي بالتأكيد لم تكن تبكي .

ـ إنك ما تزال تكذب ! ودائماً الكذبة ذاتها ! هل تعتقد حقاً أنك تخدعني بأكذوبة ولادية كهذه ؟

لم يكن سابورو يعرف ماذا يقول . أمام هذه المرأة التي لم يكن لكلماته أي تأثير فيها ، كان مجرداً من أي قدرة . ولم يبق لديه سوى التزام الصمت .

لأوّل مرة ، كانت ايتسوكو تحس بانفراج في هذا الصمت اللطيف ، ومزقت أذنيها صفارة قطار للبضائع كان يمر في الليل .

إن سابورو ، المستغرق بعمق في أفكاره ، لم يكن حتى ليسمعها . وكان يتساءل : « ماذا يمكنني أن أقول لها لكي تصدّقني ؟ في المرة الأخيرة طرحت عليّ هذا السؤال « هل تحبّها ؟ أم لا تحبها ؟ » وكأن هذا يجب أن يقلب العالم . والآن ، فهي لن تقبل بشيء مما سأقوله لها ، وستدعي أن هذا كذب . أظن أنها بحاجة إلى برهان . فإذا قلت لها الحقيقة كلها ، فسوف تصدّقني » .

جلس في نصف قرفصة وانطلق في خطاب :

ـ ليست هذه كذبة ، يا سيدتي . إنني لم أرغب أبداً في الحقيقة بأن اتخذ ميو زوجة . لقد كلمت الوالدة في « تيرني » . إنها ضد هذا الزواج . لقد قالت لي : « إنك ما زلت فتياً أكثر مما ينبغي لكي تتزوج . ووجدت بصعوبة الشجاعة لأقول لها إن ميو تنتظر طفلاً . فقالت والدتي : « ولماذا سآخذ كنّة لي فتاة حمقاء بهذا الشكل ؟ إنني حتى لا أرغب برؤيتها ، هذه الفتاة غير المحتشمة » بحيث أنها بدلاً من

أن تـأتي إلى « مايـدن » ، عـادت مبـاشـرة من « تيـرني » إلى المنزل .

هـذه الـروايـة الـسرديـة المجـردة من الافتعـال والحيلة ، والمقـدمة بلهجـة متـردّدة كـانت تفيض صـدقـاً وإخـلاصـاً . واستسلمت ايتسوكو لفـرح شديـد ، في النشوة الحـالمة بهـذه اللحـظة الهاربـة . وفي حين كـانت تصغي ، كـانت عينـاهـا تلتمعان ، وأنفها يرتعش .

وكأنها في ارتعادة ، سألت :

ـ لماذا لم تقل لي ذلك ؟ لماذا لم تقل لي هذا على الفور ؟

ثم تابعت بنفس اللهجة :

ـ في هـذه الحالـة ، حين عدت بعـد رحيل ميـو ، أرضاك الوضع تماماً ، أليس كذلك ؟

كانت أقوالها مفكّراً بها نصف تفكير ، منطوقة نصف نُطق . وهي نفسها كانت تجد مشقة في التمييـز بين المناجـاة الذاتيـة التي كانت تردّدها ذهنياً ، والكلمـات التي تلفظهـا . إن المرء يرى في الحلم ، نبتات فتية تتحول فوراً إلى أشجار مثمرة وإلى عصـافير صغيـرة تصبح خيـولاً مجنحـة . وهكـذا ، في نشـوة ايتسوكو والوجد الذي ألمّ بها ، كانت تولد آمال مجنونة يمكن أن تتحقق على الفور .

كـانت تفكر : « ومـاذا إذا كنت أنا التي يحبّهـا سـابـورو ؟ تلزمني الجسارة لأسأله عن ذلك ، وليس حتى أن أفكر بأن مـا آمله هو خطأ . فإذا تحقق أملي ، فسأكون سعيدة . وهذا شيء بسيط تماماً » .

هكذا كانت ايتسوكو تتفكّر . إن أملاً لا تخشى من تـلاشيه ليس ، في آخر تحليل ، إلا نوعاً من اليأس .

وسألت ايتسوكو : حسناً ، من هي التي تحبها ، إذاً ؟

هنا ، كانت هذه المرأة الفـطنة تـرتكب خطأ ، فتلك ، في هذه المناسبة ، ليست كلمات يمكن أن تقرّب بينهما . ولو أنها مدّت يدها لتلمس بلطف كتف سابورو ، ربما أمكن لكل شيء أن يبدأ . إن مجرّد واقع أيديهما المتلاقية كان يمكن أن يصل ما بين هذين الكائنين المتباينين .

ولكن الكلمـات كانت تنتصب بينهمـا مثل شبـح شـرس ، بحيث أن سابورو لم يكن يفسّر كما ينبغي الحمـرة التي كانت تضرّج وجنتي ايتسوكو . كان مثل ولد موضوع أمام مسألة جبر صعبة . وكان جوابه الوحيد هو الانسحاب .

وكان يقول في نفسـه : « أحب . . لا أحب . . وأيضاً . . وأيضاً » .

إن الحب ، هذه اللفظة السهلة والمريحة لأول وهلة ، كانت قد حملت إفراطاً من المدلولات في الحياة التي عـاشها بمثـل ذلك القدر القليل من التفكير . يضاف إلى ذلك ، أنهـا ، أي لفظة الحب ، كانت تـوشك على أن تفـرض على الحياة التي سيعيشها في المستقبل بنية لا جدوى منها . إنها لم تكن تمثل بالنسبة إليه سوى مفهوم لا يقدم أية ضرورة .

لم يكن يجد في حياته اليومية أي مكان لمثل هذه الكلمة ، كلمة يستطيع من أجلها أن يحدث له أن يضع حياته في اللعبة . بل وكان من الصعب عليه أن يتصوّرها ، وكان كـل ذلك يبـدو مضحكاً تماماً .

لقد كان هناك شابٌ يجـد نفسه بـالقرب من امـرأة صبية . وكان من الطبيعي أن يُقبِّل سابورو ميو . وقـد تضاجعـا . وهكذا كانت ميو تحمل طفلاً في رحمها . ثم كان من الطبيعي تمامـاً أن يتعب سـابورو ميـو . إن لعبتهما الـولادية كـانت قـد بلغت ذروتها ، ومن أجل هذه اللعبة ، لم تعد ميو ضرورية له . وأي كان أصبح بإمكانه أن يحلّ محلها . وفي الواقع ، القول بـأنه كـان مُتعباً من ميـو يمكن أن لا يكـون دقيقـاً . فبـالنسبـة إلى سابورو ، فإن ميو لم تعد بحاجة لأن تكون ميو ، وهذا كـل ما في الأمر .

لم يكن سابورو يتصرَّف أبداً تبعاً للمفهوم القائل إنه إذا لم يعد يحب شخصاً ما ، فيجب أن يحب شخصاً آخر ، أو أنه إذا كان يحب شخصاً ، لا يمكن عشق شخص آخر . وبالتـالي ، فقد كان عاجزاً من جديد عن أن يجيبها .

وإذن ، فمن ذا الذي كان يستـطيع أن يحشـر هذا الشـاب البـريء ، ومن يمكن أن يؤنّب على إرغامـه بتقـديم إجـابـات عديمة التبصر ؟

واستخلص سابورو أنَّ عليه أن يتابع لا ميله الخاص ، بـل خطة تمارس بصورة عامة ، وهو موقف خاص بالذين عاشوا ، منذ الطفولة في عائلة أجنبية .

وبعد أن اتخذ قراره ، لم يكن يلزمه زمن طـويل ليقـرأ في عيني ايتسوكو التمني بأن يلفظ اسمها .

قـال في نفسه : « إن عينيهـا نديّتـان بالقلق . . وهـذه هي الحقيقة . إن الجواب الجيّد هو اسمها ، هذا مـا تريـده بدون أي شك » .

وانتزع حبّة عنب من قربه وأدارها في راحته . ثم خفض رأسه وقال بصوت واضح :

ـ إنه أنت ، يا سيدتي .

في صوته ، كان الكذب أوضح مما ينبغي .

لقد كان يبلغها بأنه لا يحبّها بصورة أكثر دقة مما لو قال لها : « إنني لا أحبك » . ولم يكن من الضروري أن يكون الشخص ذا رأس بارد ليقرأ عبر هذه الكذبة غير المخادعة ، وقد عادت ايتسوكو ، وإن كانت غارقة في النشوة ، إلى ذاتها لدى سماعها هذه الكلمات .

كان كل شيء قد انتهى .

سوّت شعرها المجلّد بالهواء الليلي . ثم قالت بصوت معتدل وشجاع :

ـ نُحسِن صنعاً إذا عدنا إلى المنزل . علينا أن نرحل غداً ، في ساعة مبكرة ، ويجب أن أنام قليلاً .

خفض سابورو قليلاً كتفه اليسرى ، ونهض ، حزين الهيئة . وأحسّت ايتسوكو بالبرد على رقبتها فشدّت وشاحها مجدداً .

ولاحظ سابورو أن شفتي ايتسوكو كانتا تلمعان في عتمة أوراق العريش اليابسة .

كان سابورو متعباً من هذا الحوار المضجر . ولدى نظره إلى ايتسوكو خلسة ، رأى فيها ليس امرأة ، بل ما يشبه المسخ الروحي ، تجسيداً روحياً لا يمكن تحديده ، يبغض ، أو يتألم أو ينزف ، أو يطلق صرخة فرح : تشخيصاً لاعصاب ثائرة .

لكنها حين نهضت لتشدَّ الوشاح حول عنقها ، وعى سابورو ، لأول مرة ، أنها كانت امرأة . وإذ كانت تستعد للخروج من البيت الزجاجي ، مدّ ذراعه وسدّ عليها المرور .

حاولت أن تبعده ، ونظرت إليه بثبات لإعطائه الأمر بتركها تمرّ . ومثل مجذاف زورق ملقى عبر مياهٍ ملأى بالاعشاب ، يصدم جانب زورق آخر ، اصطدمت العضلات القوية لذراع سابورو بصدر ايتسوكو الطريّ .

ولم تفقده نظرتها شجاعته ، وفتح فمه بلطف . ثم ضحك بصوت منخفض وبهيئة مُطَمْئِنَة . وتظاهر بأنه لم ينتبه ، فطرفت عيناه بشدة ، وأطبق جفنيه مراراً عديدة .

صدر حديثاً

قدر الإنسان

رواية : أندريه مالرو

ترجمة : فؤاد كامل

دار الآداب